يوما ككل الايام ، لكنه يختلط برائحة البرغل والعرق ، نأكلها بين اشياء الطبيعة لنخبرها عن اشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلما . كان الجبل الصغير مجرد حافة نخترقها في تعجب وكبرياء . ننسج القصص عن احزاننا وننتظر لحظات الفرح او الموت ، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الايام .

يسمونه الجبل الصغير ، وكان يمتطي السهول الواسعة الى شجيرات الصبير المنتشرة في انحائه . كانت النخلة التي امام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار . وكنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها . فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا . لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي . فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط . تركناها تنحني يوما بعد يوم . وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي .

كنا نخاف على الجبل وعلى نباتاته . وكان يتقدم الى حافة بيروت ويسقط فيها وشجيرات الصبير التي تجرح ارجلنا ، تموت ، والنخلة تنحني ، والجبل يتقدم الى حافته .

يسمونه الجبل الصغير . كنا نعرف انه ليس جبلا ، وكنا نسميه الجبل الصغير .

★ ★ ★

في الثالثة من عمري ، جاء كاهن الحي بجبته الطويلة السوداء ، ولحيته الجميلة . جلس في بيتنا وتحلقنا جميعا حوله . بدأ يخبرنا النوادر والقصص . ثم حدثنا عن انجازات ستالين والبولشفيك . التفت الي ، داعب شعري ، وقال لامي ان الوقت قد حان لانذر للقديس انطونيوس والبس عباءته . [لبس عباءة القديس انطونيوس ، هو تقليد عند غالبية المسيحيين الشرقيين في بلادنا ، يلبسونها لاولادهم تبركا بذكرى اول راهب مسيحي ترك المدينة وذهب الى صحراء سيناء حيث اسس اول تقليد رهباني في الكنيسة] .

العباءة بنية اللون ، وعلى الخصر حبل ابيض يتدلى . امشي في الشوارع واقلد حركات القديسين . امشي وحولي اطفال يلبسون العباءة او لا يلبسونها . نتقدم صفا طويلا ، الى حيث الايقونات المذهبة والزجاج الذي تلونه الشمس . وحين انسى انني اصبحت قديسا ، اركض ، العب بالحصى والرمل . اقع على الطرقات . ثم حين اعود الى البيت ، تنظر امي الى ثياب القديس الملوثة ، تضربني على وجهي وتشتمني . ثم تأمرني ان اركع واصلي . اركع واصلي فينسى القديسون انني تركتهم وذهبت لالعب مع الاطفال الآخرين .

امشي مزهوا بعباءتي البنية الجميلة . اقلد حركات الكاهن . اذهب الى المدرسة فخورا بثيابي ، واضع فوق رأسي هالة مدورة من اوراق الاشجار .

مات كاهن الحي فجأة . لم افهم ماذا يعني خبر موت الكاهن . اذكر انني بكيت لان اختي بكت كثيرا . ثم بعد حوالي ستة اشهر كما اذكر [ربما لم اعد اذكر الحادثة، لكنها مطبوعة في ذاكرتي لان امي روتها لي عشرات المرات] . ذهبت مع امي وابي الى الكنيسة . كان التقليد هو خلع ثياب الراهب الجميلة في الكنيسة حيث تقدم الى الهيكل ، ثم تضاء الشموع كشكر او كصلاة .